

الزيارة الأخيرة

بقلم أكرم المدياني

الزمن

الساعة السابعة صباحا من يوم صحو دافئ في كاليفورنيا .
نبرابر ١٩٦٠ .

*

السجين

(وقد أحس بالزائر بعد ظهوره) هذا أنت ؟

الزائر

ألم تكن تتوقعني ؟

السجين

بلى ، ولكنك تأخرت هذه المرة .. دائما وأنا أنتظر قرار المحكمة
كنت تأتي قبل وصول النتيجة بساعات .

الزائر

هذه المرة أردت ان ابعث في نفسك الامل .

السجين

(في عتاب) لأنني لم اعد بحاجة اليه !

الزائر

وهل اصبحت بعد رفض تأجيل التنفيذ هذه المرة لا تحتاج الى
الامل ؟ كلا انت اليوم بحاجة اليه اكثر من اي وقت مضى . وانا في
طريقي اليك سمعت الساعة . لم يبق على التنفيذ سوى ثلاثين دقيقة .
على الاقل جعلتك خلال الايام الماضية تنتظر شيئا . ان لم يكن الامل
فهو انا .

السجين

لم اذكرك خلال السنوات الاثنتي عشرة الماضية قدر ما ذكرك
امس واول امس (يرتفع صوته قليلا) فانت المسؤول عن هذا المصير
الذي سأنتهي اليه .

الزائر

انا المسؤول ؟ لماذا ؟ لماذا تفكر بالامور هكذا ؟ لماذا لا اكون
المسؤول عن سنوات عزلتك وقراءاتك . سنوات تكوينك حتى اصبحت
كاتبا يقرأ لك العالم . ويهتز اذا رفضت المحكمة تأجيل انهاء حياتك .
انا الذي اعطيتك هذه السنوات .

السجين

(بلهفة) هل حدث شيء بعد الرفض ؟ قل لي .. حدثني ..
ماذا فعل الكتاب في باريس ؟ هل ارسلوا برفقيات هذه المرة ام تظاهروا ؟

الزائر

يبدو ان القضية لم تعد مجرد امل بل اصبحت زهوا ، انت اليوم
كاتب تقرأ لك الجماهير .. ويستهبوك اهتمامها .. يعجبك انفعال
الناس لمصيرك .

السجين

وهل في هذا شيء ؟ انا هنا اصبحت صاحب رسالة .. اتحدثني ؟

الزائر

كلا لا احسدك .. فانا اعرف انفعال الجماهير ايضا .. الا تذكر
مغامراتنا ؟ .. كانت اصلا مدفوعة بالشيء نفسه الذي جعلك تكتب ..
كان الغرض منها اهتمام الجماهير ..

(غرفة سجن صغير في كاليفورنيا (زنزانة) لها ابواب . الجدران
مدهونة بلون رمادي داكن بارد يوحي بالانعزال وعدم البقالة من قبل
الذين اقاموا بناء السجن ، وهي عارية الا من نافذتين صغيرتين عليهما
قضبان حديدية في شكل متواز عند اعلى الجدار الاوسط . امام
الجدار الايمن طاولة صغيرة من خشب بسيط وكروسي ، على الطاولة
بعض اوراق وكتب وآلة كتابة . وفي اعلى الطاولة يبدو رف من
طايقين ما زالت عليه بعض الكتب . امام الجدار الايسر سرير حديدي
ما زال مههدا كأنه لم يتم عليه احد في الليلة الماضية .

على جانبي الممثل عند نهاية كل من الجدارين الايمن والايسر
حاجزا قضبان بطول الجدارين لا يزيد عرض كل منهما على الخمس
والعشرين بوصة في مواجهة الجمهور .

في وسط الغرفة الى ناحية وسط الممثل من اليمين يظهر السجين
وهو يضع بعض الكتب في صندوق من الورق المقوى بين مجموعة من
الصناديق المائلة . كل شيء حوله يوحي بانه يوشك على مفادرة
الغرفة نهائيا .

مصدر الاضاءة على السجين من النافذة الصغيرة اليمنى . ضوء
كالتشمع ليس قويا جدا فهو ضوء الصباح ولكنه ينفذ الى الغرفة
بنشاط . المثل مظلم قليلا ، بعد بداية المسرحية بقليل يأتي ضوء
مائل من النافذة اليسرى ويبدو الزائر في الوسط الى اليسار ايضا
يتصرف كأنه اتي في زيارة قصيرة وسيمضي بعد حين . بذلته كحلية
مقلمة وفميصه رمادي مع ربطة عنق فاتحة . حليق اللقن وشعره لامع ،
بخلاف السجين الذي يلبس قميصا وسروالا لونهما رمادي اجرب ،
شعره قصير ويلبس نظارات طبية .

عند بدء المسرحية تسمع دقائق ساعة السجن الكبيرة من الخارج ،
سبع دقائق حازمة . وبعد ظهور الزائر تضاء الغرفة اضاءة كافية وتبدو
محتوياتها ويخف السماعان الايمان من النافذتين وتأتي الاضاءة على
السجين والزائر من اعلى المثل ويظل الضوء خلف النافذتين غير قوي
ولكنه يوحي بشكل عيني على الحائط الاوسط العاري .

عندما يتحرك السجين الى مقدمة المثل تبدو على وجهه وجسمه
ظلال قضبان وذلك اششارة الى ان الحائط الرابع للغرفة امتداد
لحاجزي القضبان على الجانبين . وعندما يتحرك الزائر الى المقدمة
لا تظهر عليه ظلال القضبان .

الأشخاص

السجين : في الاربعين ، حديثه فيه اتران المثقف وحيرته واذا
غضب فلأنه عاجز عن العثور على اجابة مرضية
لما يؤرقه .

الزائر : في الثامنة والعشرين ، في حديثه سخريه ولاهبالاة ،
لكنه ذكي في حدة ، غير اخلافي في تصرفه ، ولا يبدو
عليه انه منقل بشيء .

حارسان :

ملاحظة هناك شبه في الملامح بين الزائر والسجين مع فارق
السن ..

السجين

مفامرانا؟... انا لم اكن ممل .

الزائر

تذكرت .. هذه المفامرات قمت بها قبل ان تولد انت (مسترجعا الذكرى بحنان) كانت انبأوها تنشر في الصحف المصورة في المكان نفسه الذي تنشر فيه اخبار كتبك ..

السجين

ومن اجل هذه المفامرات ستنتهي حياتي بعد لحظات .. اليس غريبا ان اموت عقابا على اشياء فعلتها انت ؟

الزائر

اظن انك بعد ان اصبحت صاحب رسالة ستنجو من المصير ؟ من يدري لعلك سائر اليه الان لانك صاحب رسالة .. انك اليوم احسن حالا .. لن يسالك احد ان تحمل جبل مستنقك بيدك .

السجين

ولكنك انت ...

الزائر

نعم انا المجرم .. وانت الذي ستموت .

السجين

وانت !!

الزائر

لا تخف .. سيقوم اناس اصحاب رسالة ، مثلك ، ويطالبون براسي .. سيقولون : هذا الذي كان ينبغي ان يمحي عن وجه الارض .. اقتلوه .. انه الشر .

السجين

اذن انا اموت من اجلك !

الزائر

تموت ليطمئن الناس ان الشر قد زال .

السجين

وهل يعرفون انك انت الشر .. وانت الذي ستبقى ..؟

الزائر

قد يعرف بعضهم ولكنهم لن يستطيعوا تغيير شيء .. ثم ان كثيرين يؤمنون بنظريتي ...

السجين

نظريتك ..؟ وهل اصحت لك نظرية ؟

الزائر

ارجوك .. بدون اهانات .. انا دائما صاحب نظريات .

السجين

حقك علي .. لا اريد ان نتشاجر في ساعتنا الاخيرة .

الزائر

ساعتك وحدك .

السجين

ساعتي وحدي !! اسف فقد قاطعتك . ما هي نظريتك التي يؤمن بها الكثيرون ؟

الزائر

ككل النظريات .. في منتهى البساطة .. انت اليوم ستموت من اجل مفامراتي انا .. اليس كذلك ؟

السجين

نعم ؟

الزائر

وانت هنا بعزلتك والعارف التي اصبحت تشغل رأسك وكتبك التي غمرت الاسواق .. كل هذا بسببي انا (يعاول السجين مقاطعته لكنه يمضي مسرعا في الحديث) بدوني انا وجوده كان مستحيلا .. لهذا فانت لست شيئا .. ما زلت انا هو الشيء الحقيقي .. اذن فهؤلاء الناس يرون ان تنفيذ الحكم سينصب علي انا .. وهذا عدل .

السجين

وهؤلاء الا يعرفونني انا .. الانسان الجديد الذي ولد بلا ذنب ..؟

الزائر

انت تضحكني .. هؤلاء لا يؤمنون سوى بالانسان الذي يولد مذنبا .. وانت ولدت تعمل على كفيك اوزاري .. وقد حان الوقت لتدفع الثمن ..

السجين

لا اظنك تقول الحق .. انت خبيث دائما .. تريد ان تقنعني بان ما سيحدث هو العدل .. انريد ان تقول لي ان الذين يملأون الدنيا صياحا في باريس يؤمنون ايضا انني ولدت احمل في جوانبي ذنوبي (مستندرا) او ذنوبك ؟

الزائر

انهم لا يناقشون هذا ..

السجين

اذن لماذا يحتجون ؟

الزائر

هذا شيء اخر .. انهم يحتجون لانهم يرون ان قتلك هو ذنب جديد .. مجرد محاولة لايقاف هذه الحلقة . الايقاع الزمني الرهيب .. انت .. (مستندرا) لا مؤاخذه انا اقتل .. ثم اقتل ثم يقتل الذي يقتلني .. وهكذا ..

السجين

انت لعين .. حتى اصدقائي آتيت اليوم لتجرديني منهم ، لا بد ان احدا منهم يحبني .. ولهذا فهو يدافع عن حياتي ..

الزائر

لا شك في هذا .. لا اكره شيئا قدر كراهيتي لهذا الذي يسمونه الحب .. نعم بعضهم يحبك ولا يتصور ان تنتهي حياتك على هذا النحو ... بينما لا يستطيع ان يفعل شيئا .

السجين

(بعد لحظة) ... لقد خطرت لي فكرة ... (ينهض الى مقدمة الممثل وينادي ..) يا سجان .. يا سجان ..

الزائر

ماذا تفعل ؟

السجين

انادي السجان .. ليقض عليك .. ستكون مفاجاة للعالم عندما يعلن النبا .. قبضت على الفاعل الاصلي بنفسني هنا .. في هذه الزلزلة .. ستذهب انت الى المشنقة .. هذا هو العدل . انا لم افعل شيئا بل انت الذي فعلت ولتلق جزاءك ! يا سجان يا سجان !!

الزائر

(هاديء الاعصاب) اجلس .. اجلس انت تفعل المستحيل ..

السجين

(مستمرا) يا سجان .. يا سجان ... المستحيل ؟ .. لماذا ؟

الزائر

لان الحارس لن يسمعك ..

السجين

وهل يسمعك انت اذا ناديت ؟

الزائر

ولا انا .. لن يسمع احدنا ما دمنا نجلس معا ..

السجين

ما هذا .. اهي احدى الاعبيك ؟

الزائر

كلا انه الواقع .. السجان لن يسمع احدنا الا اذا كان بمفرده .. وانت لا تستطيع مفادرة المكان حتى يفرض انني بقيت وحدي لاناديه .. واصنع معك معروفا .. فكرتك مستحيلة ..

السجين

ولنننا لسنا شخصا واحدا فنحن مختلفان ..

الزائر

هذه هي المشكلة .. ان تصل بصوتك الى العالم فيعرف اننا لسنا شخصا واحدا .. او على الاقل ان يصل صوتك الى السجن خارج هذه الزنزانة ..

السجين

انت تحطمني .. لن اتوقف عن النداء .. يا سجان .. ما زالت لدي عشر دقائق اسطيع ان افعل خلالها كل شيء .. يا سجان .. يا سجان ..

الزائر

وفر على نفسك العناء .. ان اسعد لحظات لقاء المصير هي التي تمر هادئة ..

السجين

ولكنها فرصة نادرة .. كيف لم تحظر لي قبل الان .. لماذا لم اناد السجن في احدى زيارتك السابقة .. كنت اقول له .. هذا هو الذي تبحث عنه .. الجرم الاصلي .. لو فعلت لكنت الان حرا طليقا ..

الزائر

لا شك ان الذي تقوله جميل .. ولكنه ليس ممكنا ..

السجين

كيف .. اأنت المجرم الحقيقي ؟
الزائر

نعم .

السجين

اذن ؟

الزائر

ما ليس ممكنا هو انك لن تستطيع ان تسلمني .

السجين

انت لست هنا لاجئا سياسيا .. انت ..

الزائر

(مقاطعا) هدى روعك .. انا مجرم .. لقد اعترفت .. انت تنسى؟؟ قلت لك ان السجن لن يسمعك ونحن معا !! لن يسمع احدنا الا اذا كان بمفرده .

السجين

(متحايلا) لماذا لا تذهب اليه وحدك وتعترف !!

الزائر

لاستطيع .

السجين

الا تريد ان تصيف الى افضالك فضلا اخر ؟ .. ساصرف حياتي بعد ذلك لتخليد ذكراك .

الزائر

اذا فعلت فستعود الى هنا في اليوم التالي .

السجين

ارجوك .. اذهب الان الى السجن .. وقل له انك انت الفاعل الاصلي واثبت له براءتي .. لقد قلت له مرارا انني بريء .. ولم يصدقني .. لماذا لا تذهب الى المشقة بدلا مني .. ساختبيء تحت السرير .. شكلك يطابق الصور التي نشرتها الصحف ايام المحاكمة الاولى .. لن يشك احد ولا حتى منفذ الحكم ..

الزائر

ولكنهم اصبحوا يعرفونك الان ولن تنظلي عليهم هذه الحيلة .. والسرير لا يصلح لان تختبيء تحته .. وفوق هذا فانا لا استطيع .. لا استطيع .. انه لن يراني ..

السجين

لن يرى .. ولن يسمع .. اي سجان هذا ؟ من عينه سجانا ؟

الزائر

لم افل لك انه لا يرى ولا يسمع .. فلت انه لن يراني انا ولن يسمعك انت ..

السجين

لن يراك انت ؟ .. لماذا ؟

الزائر

هذا هو انسر الذي استظمت به زيارتك طوال هذه السنين .

السجين

هل فعلت شيئا كي تزورني .. اهي تعويذة ام مجرد وفاء ؟

الزائر

لا تعويذة ولا وفاء .. بل ان شروط الزيارة مفقدة .. وبالنسبة لي تكاد تكون مستحيلة .. لهذا فاني ازورك دون ان يراني السجن ..

السجين

هكذا بكل بساطة ؟

الزائر

نعم هكذا بكل بساطة .. الا تريد ان تقتنع بان هذا مستحيل ؟

السجين

انت لا تود مساعدتي .. تقول انك اتيت بي الى هنا وهيات لي الفرصة لاصبح اديبا كبيرا .. لماذا لا تتم جميلك وتجعلني ..

الزائر

ماذا ؟

السجين

اعيش .. اريد ان اعيش .. انت لا تعرف كم هي رائعة الحياة .. فلهذا لا تكف عن التخريب .. اما انا فاعرف .. اريد ان اعيش ..

الزائر

ولكنك ستعيش .. دائما يقول الناس اذا مات اديب مثلك .. انه لم يمض فآثاره حية باقية .

السجين

اريد ان اعيش فقط .. لن اكتب شيئا بعد الان .. لتذهب آثارني الى الجحيم .. آثاره باقية .. هكذا كلام نقاد فيه شماتة .. لقد مات وبقينا نحن ومعنا آثاره ، هذا ما يريدون قوله حقيقة ..

الزائر

لا نجعل لحظتك الاخيرة مريرة .. هؤلاء النقاد هم الذين رفعوا اسمك عاليا وهم الذين سيكون مصيرك ..

السجين

لا اريد .. لا اريد ان تبقى بعدي تتمتع بكل شيء .. انا لا اصدقك .. لم اصدقك مرة واحدة .. (يعود الى النداء) يا سجان .. يا سجان .. يا سجان ..

(اثناء نداء السجين يحدق الظلام بالمنطقة التي يقف فيها الزائر ويخفتي .. ويبقى السجين وحده دون ان يلاحظ ذلك ..) يا سجان ..

صوت السجنان

نعم

السجين

(يملؤه الامل) لقد سمعني .. لقد سمعني .. (يبدو السجنان آتيا من مقدمة الممثل عند الجانب الايسر) يا سجان .. حالا .. (في غبطة شديدة) حالا .. انت هنا .. اخيرا وجدته .. الفاعل الاصلي .. اقبض عليه .. انه هنا في هذه الزنزانة .. (يلتفت حوله فلا يجد احدا) .. هنا .. كان هنا .. مستحيل .. الفاعل الاصلي .. انا بريء .. (باستسلام) انا بريء .. انا بريء (يهدئه السجنان ويأتي سجان آخر .. ويمضي السجين معهما بهدوء ويملا الظلام المثل بينما تدق الساعة النصف) .